أعمال موجهة مادة: بيبليوغرافيا النقد الأدبي القديم

الحصة السادسة: كتاب مسائل الانتقاد ابن شرف القيرواني

ترجمة للمؤلف

ولد أبو عَبْدِ اللهِ محمَّدُ بنُ أبي سَعِيدِ بن أحمَدَ بنِ شَرَفٍ الجذَامِيُّ القيرواني نحو (سنة 390هـ)، من إحدى البيوتات الشريفة القَادِمَة مع الجيش العربي الفاتح، والقيروانُ إذْ ذاك زَاهيةٌ زَاهِرَةٌ بالعُلُوم رافلةٌ بالمعارف والفُنُون، فرَوَى المعقولَ والمنقولَ عن أَفَاضِلِ ذلك العصر كأبي الحسن القابسي، وأخذ الفنون الأدبية من أساتذتها: كأبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني، ومحمد بن جعفر القَزَّاز، وغيرهما، حتى برع فيها وأَجَادَ؛ فألحقه حينئذٍ المعز بن باديس الصنهاجيُّ أمِيرُ إفْريقية بديوان حاشيته؛ لِما رَأى فيه من الذكاء والنَّجَابة، فأصبح من أهم شعراء البلاط وأبرز أعلام المدرسة الشعرية القيروانية، وهناك التقى ابنُ شَرَف بجماعةٍ من الكُتَّاب البلغاء، والشُّعراء الظُّرفاء الذين كان يجمعهم ديوانُ الملك، مثل علي بن أبي الرجال الكاتب، رئيس قلم الإنشاء، وأبي علي الحسن بن رشيق صاحب العمدة، ومحمد بن حبيب القَلَانِسِيِّ، وغيرِهِم.

قال فيه ابن الدباغ: غادر ابن شرف القيروان بعد خرابها على إثر الزحفة الهلاليّة فأنتقل إلى المهديّة ثم صقليّة إلاّ أنّه لم يطب له المقام بها فأنتقل إلى الأندلس . أقام ابنُ شَرَف مُدَّةً بالمهْدِيَّة مع زُمْرَة شُعراء الملك يخدم الأمير المعز، وابنه تميمًا إلى أن رحل عنها قاصدًا جزيرة صقلية، لِمَا سَمِعَ عن كَرَمِ أميرِها، وإليها لحقه ابنُ رَشيق، وقد كان وقع بينهما بالقيروان، ما وقع بين جريرٍ والفرزدق، أو بين الخوارزمي وبديع الزَّمان، فلما اجتمعا بصقلية تسامحا، وأقاما بها زمنًا ثم استنهض يومًا ابن شرف رفيقه على جواز الأندلس، فأنشد حينئذ ابن رشيق البيتين المشهورين:

مِمَّا يُزَهِّدُ فِـــي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيـــــها وَمُعْتَضِدِ

أَلْقَابُ سَلْطَنَةٍ من غَيْرِ مَمَلْكَةٍ كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ

فأجابه ابن شَرَفٍ بَدِيهَةً:

إِنْ تَرْمِكَ الْغُرْبَةُ فِي مَعْشَرٍ قد جُبِلَ الطَّبْعُ عَلَى بَعْضِهِمْ

فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ

واجتاز ابن شرف وحده الأندلس، وسكن ألمرية وغيرها، وتردد على ملوك طوائفها كآل عباد بإشبيلية وغيرهم، وبهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته (سنة 460هـ/1067م)، وخلف ابنًا يدعى أبا الفضل جعفرًا كان أديبًا مجيدًا أيضًا، أورد له العماد في خريدته والفتح في قَلائِدِهِ قَصَائِدَ وفُصُولًا، تشهد له بِطُولِ الباع.

آثاره له عدة مؤلفات منها:

1- أبكار الأفكار: يقول عنه ابن دحيه: «في سفرين، اختراع كلّه في الحكم والأمثال والنظم والنثر» ويقول عنه ياقوت: «جمع فيه ما أختاره من شعره ونثره». ولم يحدد حجمه.

2- أعلام الكلام: أهداه للمعتضد بن عباد وأجازه عليه، ويقول عنه ابن دحية "مخترع كلّه"، ومن جملة ما احتواه هذا الكتاب مجموعة من مقاماته، جلب منها صاحب الذخيرة مقامتين، منها مقامته الشهيرة في الشعراء، كما ساق ابن بسام مجموعة صالحة من نصوص هذا التأليف.

3- مسائل الانتقاد: ويسميها ياقوت: "رسالة الانتقاد" وهو مدونة هذه المحاضرة.

4- ديوان شعره: يذكر ابن دحية أنه في خمسة مجلّدات. وذكره ياقوت في معجم الأدباء ولم يحدد حجمه. وقد احتفظت كتب الأدب والتراجم بمجموعة مهمّة من شعره تبلغ الآن أكثر من ستمائة بيت، وأول من تولّى جمع طائفة منه ح.ح عبد الوهاب في مقدّمة نشرته لمسائل الانتقاد من ص 300-311، ثم جمع منه عبد العزيز الميمني في " النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف" قطعة صالحة، ثم جمعه حسن ذكرى حسن تحت عنوان ديوان ابن شرف القيرواني"، ونشرته في القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1983

تعريف الكتاب

كان بين الشاعرين المتعاصرين: ابن شرف وابن رشيق منافسة كبيرة مثل ما كان بين جرير والفرزدق في بلاط آل مروان، لمحاولة كل واحد منهما حيازة المكانة الأعلى عند المعز، حتى أمست غيرة وعداوة نفرت قلب كل منهما تجاه الآخر مما جعل كانت هذه المنافسة محفزا إيجابيا على حياتهما الأدبية.

و كان ابن رشيق أوسع قلبا وأرحب صدرا من ابن شرف حيث يقول فيه: "شاعر حاذق متصرف كثير المعاني والتوليد، جيد المقطعات والتقصيد، أشعر أهل زمانه من شق غباره، وأحذقهم من اقتفى آثاره، وما منهم إلا أغر نجيب"[1] ، وهذا دليل على أن ابن رشيق رغم المنافسة التي كانت بينه وبين نده ابن شرف إلا أنه كان منصفا في آرائه النقدية وتميزه بالموضوعية في إصدار أحكامه.

سبب تأليف الكتاب

يعد ابن شرف شاعرا قبل كل شيء حيث كان ملازما لبلاط المعز بن باديس، وكان هو ومعاصره ابن رشيق من المفضلين عند المعز والمقربين إليه. وكانت بينهما منافسة كبيرة لمحاولة كل واحد منهما حيازة المكانة الأعلى عند المعز حتى أمست غيرة وعداوة نفرت قلب كل منهما تجاه الآخر، أما من الناحية الأدبية فقد كانت بن الأديبين الكبيرين في القيروان مناقضات ومهاجاة أشعل نارها التنافس الأدبي بينهما و التفات الأمير المعز إلى هذا تارة وإلى ذاك أخرى[2]

هذه المنافسة بين الشاعرين تعدت حدود المنافسة الشعرية إلى منافسة في مجال النقد الأدبي، حيث سبق لابن رشيق أن ألف كتابه النقدي "العمدة" الذي ذاع صيته في المشرق والمغرب، الأمر الذي دفع بخصوم ابن رشيق والحاقدين عليه إلى التشكيك بصحة كتابه، أو إلى اتهامه بالانتحال والسرقة، وكان على رأس هؤلاء الشاعر ابن شرف القيرواني الذي جعل ابن رشيق يخرج عن صمته وهدوء طبعه فيقول " وكم في بلدنا هذا من الحفاث قد صاروا ثعابين، ومن البغاث قد صاروا شواهين، وإن البغاث في أرضنا يستنسر ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب، ويدخلوا في جملة من يعد فضله ويحضوا والله لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التي أدعوها باطلا"[3].

إن الغيرة المتأججة في نفس ابن شرف لم تبق على مستوى القول فقط، بل تخطت ذلك إلى مستوى الفعل والتأليف، وهذا حافز إيجابي على المنافسة الإبداعية، وقد ذهب بعض داري ابن شرف إلى أن أنه كان يهدف من تأليف كتابه "إلى معارضة كتاب "العمدة لابن رشيق"[4]

---

[1]– محمد سلامة يوسف، ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في رسالته(أعلام الكلام)، مجلة عالم الفكر، المجلد 9، عدد2، وزارة الإعلام، الكويت، سبتمبر، 1978، 214.

[2]–ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، تقديم وشرح وفهرسة: صلاح الدين الهواري وهدى عودة، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص21.

[3]– المصدر نفسه، ص5.

[4]– محمد سلامة يوسف، ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في رسالته "أعلام الكلام"، ص226.

مضمون الكتاب هذا الكتاب هو عبارة عن محاورات أو مقامات بين الشاعر وأبي الريان في مسائل أدبية نقدية منها:

1-النقد والناقد

يستهل ابن شرف مقامته الخاصة بموضوع النقد بقوله:" النقد هبة في الموالد، وفيه زيادة طارف إلى تالد"[1] فهو يرى أن النقد هبة، وهو بذلك يريد أن يبدي أن النقد أو التذوق الأدبي مبني على الفطرة التي حبا الله بها عبده، فهي مغروسة في نفسه بالفطرة مثل الشعر الذي يختص به شاعر دون آخر، وقرن هذه الفطرة بأمور مكتسبة تنمو على إثرها هذه الملكة ألا وهي الدربة ومداومة النظر في الكلام العربي.

2-طبقات الشعراء

تطرق ابن شرف إلى قضايا مهمة في النقد وهي قضايا سبق تناولها في المشرق العربي، وتتمثل في تقسيم الشعراء إلى طبقات. لقد جاء ذكر الشعراء في كتاب ابن شرف عن طريق الانتقاء حيث أنه ذكر الفحول الذين سبق التطرق إليهم في كتابي " :طبقات فحول الشعراء " لابن سلام الجمحي و"الشعر والشعراء "لابن قتيبة، وقد اعتمد المنهج التاريخي في رصد أخبار الشعراء وشعرهم تعرض لأخبار شعراء العصر الجاهلي ثم صدر الإسلام، يليه العصر الأموي فالعصر العباسي لكن الجديد الذي أضافه هو ذكر بعض شعراء العصر الأندلسي الذين يعدون ثمرة القريحة المغاربية إذ إنهم نبتوا على أرض الأندلس بعد فتحها على يد القادة المغاربة العظام.

3- قضية الإبداع في النقد الأدبي

يبدأ ابن شرف طرح هذه القضية بأسلوب تحذيري، حيث أن أبا الريان يحذر محمد من العجلة في الحكم على الشعر القديم دون روية واستحسانه لمجرد أنه قديم، والحط من قيمة الجديد لأنه محدث ، إذ يرى أّنه

"جور في الأحكام، وظلم من الحكام حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما"[2]

4- سقطات المولدين وتتمثل في التفاوت في الشعر، وعدم التناسق بين الألفاظ، والعيوب العروضية

مقتطفات من الكتاب

[1]- ابن شرف القيرواني المصدر نفه، ص 159-160.
[2]- ابن شرف القيرواني، مسائل الانتقاد، ص 161.

قال أبو عبد الله محمدُ بنُ شَرَف القيرواني: هذه أحاديثُ صنعتُها مختلفة الأنواع، مُؤتلفة في الأسماع؛ عربيّات المَواشِم، غَريبات التراجم، واختلفتُ فيها أخباراً فصَيحاتُ الكلام، بديعاتُ النظام؛ لها مَقاصدُ ظِراف، وأسانيد طِرَاف؛ يَروق الصغيرَ معناها، والكبيرَ مَغْزاها. وعزوْتُها إلى أبي الرِّيان الصَّلْت بن السّكْن، من سَلامات، وكان شيخاً هِمّا في اللسان، وبدراً تِمّاً في البَيان؛ قد بقي أحقابا، ولقي أعقابا؛ ثم ألقتْه إلينا من باديته الأزمات، وأوردته علينا المعجزات، فمَتَحْنا من علمه بحراً جارياً، وقدحنا من فَهمه زَنْداً واريا؛ وأدرنا مِن برّه طَرَفا، واجتنينا من ثمره طُرَفا[1].

قال محمد: وجاريتُ أبا الريان في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم وإسلامهم، واستكشفته عن مَذهبه فيهم، ومَذاهب ءبقته في قديمهم وحديثهم. فقال: الشعراء أكثرُ من الإحصاء، وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء. فقلت: لا أعنتك بأكثر من المشهورين، ولا أذاكرك إلا في المذكورين؛ مثل الضليل، والقتيل؛ ولبيد، وعبيد، والنوابغ والعشي، والأسود بن يعفر وصخر الغي؛ وابن الصمة دريد، والراعي عبيد، وزيد الخيل، وعامر بن الطُّفيل، والفرزدق وجرير، وجميل بن معمر وكثير، وابن جندل وابن مقبل، وجرول والأخطل؛ وحسان في هجائه ومَدحه، وغيلان في ميته وصيدحه؛ والهذلي بن ذُؤيب، وسحيم ونصيب؛ وابن حِلّزة الوائلي، وابن الرقاع العاملي، وعنترة العبسي[2]...

قال أبو الريَّان: لقد سَمّيتَ مشاهير، وأبقيت الكثير قلت: بلى، ولكن ما عندك فيمن ذكرت؟ قال: أما الضِلّيل مؤسّسُ الأساس، وبنيانه عليه الناس؛ كانوا يقولون) أسيلة الخد (، حتى قال) أسيلةَ مجرى الدمع (، وكانوا يقولون) تامة القامة (و) طويلة القامة (و " جَيْدآء " و " تامّة العنق " وأشباه هذا حتى قال: " بعيدة مهوى القرْط ". وكانوا يقولون في الفرس السابق: " يلحق الغزال والظليم " وشبهه، حتى قال: " قَيْد الأوابد ". ومثل هذا له كثير. ولم يكن قبله من فطن لهذه الإشارات والاستعارات غيره. فامتثلوه بعده. وكانت الأشعار قبل سواذج، فبقيت هذه جدداً وتلك نواهج؛ وكل شعر بعد، ما خلاها فغير رائق النسج، وإن كان النهج[3]...

مميزات أسلوب الكاتب تميز أسلوب الكاتب بالكثير من الميزات أهما الحوار كما يتجلى في الفقرة الآتية:

[1]- ابن شرف القيرواني، مائل الانتقاد، ص2
[2]- المصدر نفسه، ن ص
[3]-المصدر نفسه، ن ص.

فإن قال قائل: إنما وصفت عن امرئ القيس عيوباً من خلقه لا في شعره، قلنا: هل أراد بما وصف في شعره إلا الفخر؟ فإن قال: لم يرد ذلك وإنما أراد إظهار عيبه. قلنا: فأحمق الناس إذاً هو، ولم يكن كذلك. وإن قال: نعم، الفخر. قلنا: فقد نطق شعره بقدر ما أراد، وترجم عنه قريضه بأقبح الأوصاف.

ذكر ابن شرف ما يتجاوز أربعين شاعرا معتمدا في ذلك التسلسل الزمني للشعراء فقد نهج المنهج التاريخي محترما في ذلك الترتيب التسلسلي من:جاهليين، فمخضرمين ثم أمويين ويليهم العباسيون، وأخيرا شعراء العصر الأندلسي الذين لم يتطرق إليهم النقاد المشارقة رغم أن ابن شرف قد ذكر العدد القليل منهم إذ أنه تحدث عن أربعة منهم لا أكثر،